(٣٢) جون ف . كينيدى : صور من الشجاعة

بقلم : جون وليم وورد

يظهر الغلاف الخلفى للطبعة التذكارية لكتاب « صور من الشجاعة » جون ف . كينيدى وقد أرتسمت على وجهه تلك الابتسامة المعدية مع ذراعه الممتدة بإصبعه التى تشير إلى الأمام ، فى حين وقف خلف خاتم رئيس الولايات المتحدة وأمام علم الولايات المتحدة المطرز . ويكاد النشاط ، والشباب ، والثقة الباهرة ، والحماس لخوض النقاش أن يقفز من الصورة . كل هذا يقفز من خلفية من الأسود القائم . لقد مات جون ف . كينيدى !

وأن تجلس الآن وصورة الرجل الحى بين يديك فإنه مازال من الصعب تصديق أنه لم يعد بعد حيًّا ، وأنه مات قبل أن يبلغ السابعة والأربعين من عمره . لكن من خارج النطاق الأسود للموت مازال كينيدى يعيش على نطاق أوسع من الحياة نفسها فى ذكريات وعواطف وعقول مواطنيه الأمريكيين .

لقد أصبح كينيدى الحقيق بعد الموت كينيدى الرمزى ، الرمز الذى احتشدت حوله تطلعات ومثل وآمال الأمريكيين تجاه أنفسهم وتجاه بلادهم . ويقف كينيدى الرمزى هذا أيضاً بين القارئ وكتاب كينيدى نفسه . نحن نعلم ما حدث وأننا لا نستطيع تجاهل هذا العلم .

والآن نقرأ : « صورٌ من الشجاعة » بنظرة مختلفة : فالحاضر يغير معنى الماضى . ونحن نستطيع الحصول على هذا السجل مباشرة – كما يحب المؤرخون القول بذلك – لكن معنى ذلك

أن السجل المباشر قد امتزج بتضاعيف المعنى الذى نحاول كل يوم استيعابه من وسط فوضى الحاضر المعاش . إن ذكرى جون ف . كينيدى جزء من هذا الحاضر .

فى عام ١٩٥٥ نشرت دار « هاربر إخوان » كتاب « صور من الشجاعة » عندما كان جون ف . كينيدى هو « جاك » كينيدى عضو مجلس النواب عن ولاية ماساتشوستس . وإذا لم يصبح كينيدى رئيساً للولايات المتحدة ، بل إذا لم يتم اغتياله فى دالاس بتكساس قبل أن تتاح له فرصة إضافة تلك اللمسة العاطفية إلى منصب الرياسة – فإن كتاب « صور من الشجاعة » كان من الممكن أن يكون ببساطة واحداً من الكتب الذكية والمثيرة التى من المحتمل أن نتذكرها ، لكن ربما لن نتذكرها بمثل هذا الشعور الحاد ، لكن مستقبله قطع بوحشية من جراء أحد أعمال العنف التى تعد جزءاً من الثقافة الأمريكية بالدرجة التى يعد بها نفسها تفاؤل ومثالية الشاب الذى سقط فى دالاس . لقد سقط قبل أن تسمح أعماله للمؤرخ لكى يقيس أفعاله بأقواله . لهذا السبب يعد « صور من الشجاعة » الآن كتاباً هامًّا . إننا نبحث عن استيعاب للإنسان لكى نفهم الاستجابة العاطفية العميقة لذكرى الرجل ، ونبحث عن بعض الوميض لكى نخترق الظلام !

إن هذه القضية هامة ، ويمكن عرضها من خلال الأقصوصة : فالتركة العاطفية التى تركها كينيدى لها صدى حاد فى الولايات المتحدة ، لكنها ربما كانت أكثر عمقاً حتى أكثر حدة فى أوربا الغربية . والأمريكى خارج بلاده وخاصة إذا كان أستاذاً للتاريخ الأمريكى يحاضر فى إنجلترا أو فى بلجيكا أو فى فرنسا أو فى إيطاليا – فإنه يقف مبهوراً أمام الأسطورة الحية لكينيدى خارج الولايات المتحدة . ويبدو الأمر تقريباً كما لو كان أصدقاؤنا يريدون بقدر استطاعتهم النظر إلى أمريكا من أفضل وأرقى زاوية .

وعلى النقيض من ذلك فإنه من الناحية الفكرية والعقلية يحاول المرء أن يعيد التوازن ويقرر أن تلك الأسطورة قد فاقت حدود الواقع ، وأن كينيدى لم يحقق فى منصبه ما يستدعى هذا التقدير المبالغ فيه له والذى يقابله المرء فى كل مكان . وقد حدث هذا بالضبط فى مؤتمر عن التاريخ الأمريكى فى الجامعة الكاثوليكية فى لوفان ببلجيكا : فى ذلك المؤتمر أصر الأوربيون الشبان على الاستمرار فى جعل كينيدى نموذجاً للامتياز فى حين وجد الأساتذة الأمريكيون أنفسهم فى موقف حرج يبدو مقارباً للبرود ونائياً عن العاطفة التى أثارها اسم كينيدى كلما جاء ذكره .

وكان أحد المؤرخين الأمريكيين محقًّا تماماً عندما أوضح أن المؤرخين لم يقوِّموا أى رجل بصفته رئيساً للجمهورية بما قاله قبل أن يصل إلى هذا المنصب ، أو بما قاله أو فعله بعد أن ترك الرياسة ، بل بما فعله وليس بما قاله فى أثناء توليه منصب الرياسة بالفعل . وطبقاً لهذا المعيار لم ير سبباً ممكناً وراء وضع كينيدى فى هذه المرتبة العالية جدًّا ، وعلى سبيل الاستفزاز ذهب إلى القول بأنه لم يفهم ، بل لم يستطع أن يدرك السر فى التبجيل العاطفى لذكرى كينيدى . وكما هى العادة دائماً عندما تلمس الأيدى القذرة شيئاً مقدساً فقد هاجت العواطف ، وفى حمى المناقشة التى تلت ذلك تشعب كثير من الكلام حول ما سمى « بأسلوب » أو « منهج » كينيدى . وأخيراً عندما بلغ الضيق أشده بشاب يجلس فى نهاية القاعة قفز واقفاً ، ومثل الشباب فى كل مكان ندد بالتشكيك البارد الخالى من الدم الذى يتميز به من هم أكبر منه فى السن . وختم كلامه برفض كلمة « الأسلوب » أو « المنهج » ذاتها ؛ فهى بالنسبة له تفوح بالكثير من رائحة الأزياء الراقية أو الملابس التى تلبس وتخلع بالسهولة نفسها ؛ وتنضح بالكثير من أسلوب الصورة المصطنعة التى ترتبط فى ذهن المرء بالحسابات التجارية فى شارع ماديسون بنيويورك أو بعالم الدعاية ذى المظاهر الخادعة . وبدلا من هذا دافع عن أهمية « روح » كينيدى ، أو ذلك الإحساس الرائع الذى استلهمه الشباب أمثاله من كينيدى والذى جعل من الممكن بالنسبة لهم مرة أخرى الإيمان بالسياسة والمثل العليا والحياة الفضلى !

كان الشاب على حق وهو ما جعل المؤرخ يتذكر كلامه جيداً . إن كثيراً من أهمية جون ف . كينيدى فى اللحظة الراهنة لا يرجع إلى ما فعله أو إلى مالم ينجزه فى منصبه ، بل يرجع إلى ما كان يمثله ومازال يمثله بالنسبة للخيال الأمريكى . إنه من هذا المنظور يستطيع المرء اليوم أن يعود لإلقاء نظرة على « صور من الشجاعة » : ماذا يقول لنا الكتاب عن الرجل الذى فقدناه ؟

يتكون « صور من الشجاعة » من ثمانية فصول ، أو ثمانى صور لرجال دخلوا مجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة اعتماداً على أعمالهم المتعددة التى قاموا بها فى لحظات حرجة من تاريخ السياسة الأمريكية ، والتى أبرزت شجاعتهم وقدرتهم على مقاومة الضغط السياسى ، والصمود كأفراد على أساس إدراكهم الشخصى لما هو حق وكان الفصل الأول « الشجاعة والسياسة » والفصل الأخير « معنى الشجاعة » – بمثابة قوسين تحيطان بالصور الثمانى . وبحكم أن

كينيدى نفسه كان نائباً فمن الواضح أنه كان يكتشف إدراكه الخاص لما يعنيه شغل مثل هذا المنصب الهام .

وبصرف النظر عن أن أبطال كينيدى الثمانية كانوا كلهم من نواب الولايات المتحدة فإننا لا نجد أى إقليم أو حزب أو لحظة من الزمن يمكن أن تحتويهم أو تستغرقهم . إنهم لم يأتوا فقط من أحزاب وجماعات مختلفة فى تاريخنا القومى ، بل أتوا من الشمال والجنوب ، من الشرق والغرب . لكن مهما كانت هويتهم السياسية ، ومهما كان التجمع الذى ينتمون إليه – فإن كل واحد من نواب كينيدى الثمانية اختار فى لحظة حرجة سبيلاً غير مطروق وغير محبوب ، وتصرف فى ضوء ما يؤمن بأنه المصلحة العليا للأمة ككل ، ضد حزبه ، وضد تجمعه حتى ضد إرادة أعضاء دائرته ! إنها تلك الخاصية الشخصية الأصيلة التى تمثل الطبيعة المشتركة بين هؤلاء الثمانية .

أما بالنسبة للمزاج ، ونوع القرار السياسى الذى يواجهه كل منهم ، والنتائج المترتبة عليه – ففى هذه العناصر فقط يكمن الاختلاف والتناقض : فبعضهم يقف وراء المبدأ ، وبعضهم يتبع سياسة الالتقاء فى منتصف الطريق ، فى حين يتشبث الناس ببقاء بعضهم فى المنصب والمحافظة عليه ، على حين يلجئون إلى رفض بعضهم الآخر والإساءة إلى سمعتهم ، لكن الجميع يبرزون ما يسميه جون ف . كينيدى الشجاعة السياسية .

ويستطيع المرء أن يقول كلمتين عن الأفعال الثمانية للشجاعة السياسية التى يتكلم عنها كينيدى . الفعل الأول بسيط ، إذ يصف كينيدى كل قرار بأنه قرار من أجل المزيد من المصلحة القومية ، وليس من أجل مصلحة حزبه ، وليس حتى من أجل المصلحة التى يراها الناس الذين ضلوا سواء السبيل والذين يكونون الأمة التى يرغب فى خدمتها بطريقة ما . فكل نائب منهم يملك الشجاعة لكى يقف وراء إدراكه الخاص بكل ما هو حق وعدل ، وأن يتمسك بما يراه أفضل وسيلة لخدمة المصلحة القومية وبمعنى آخر كان كينيدى وطنيًّا متأججاً بالحماسة . فقد وضع مصلحة مجموع المواطنين فى الولايات المتحدة قبل أى مصلحة أخرى . بالإضافة إلى ذلك لم يكن يؤمن أن مصلحة الأفراد يمكن أن تضاف آليًّا إلى المصلحة القومية ؛ فالمصلحة القومية التى تعنى مصلحة كل الناس – تتخطى المصلحة الخاصة للأفراد ، وغالبا ما تدخل معه فى صراع مباشر . هذا الجانب هو الذى يكمن وراء الكلمات التى وردت فى افتتاحية الكتاب والتى أصبحت شهيرة الآن «لا تسل عما يستطيع بلدك أن يفعله لأجلك ،

سل عما تستطيع أن تفعله أنت من أجل بلدك ! » .

والكلمة (الثانية) التى يمكن أن نقولها عن الأفعال الثمانية للشجاعة السياسية عند كينيدى هى أنه كان يؤمن بأنه يتحتم على الزعماء أن يقودوا أممهم . وبمعنى آخر فإنه يكشف عن نفسه فى «صور من الشجاعة» بحيث يبدو – بدرجة قد تكون مدهشة – من الذين يؤمنون بدور الصفوة ، لكن ليس بمفهوم الصفوة التى تنهض على الثروة أو الطبقة أو العائلة أو التربية ؛ فقد آمن بأن أعضاء الكونجرس فى الولايات المتحدة ، ومن ثم كل المسئولين المنتخبين يشكلون بالفعل الصفوة السياسية ، ويتحتم عليهم أن يدركوا هذه الحقيقة ، وأن يتحملوا عبء القرار الشخصى الذى يتمشى معها . ومثل ثورو فإن كينيدى يؤمن بأن الفرد أغلبية فى ذاته . ومهما كانت حسابات العمل السياسى معقدة فإنه فى النهاية يتحتم على المرء أن يعيش طبقاً لمعتقداته الخاصة . وفى ختام الأمر يجب على المرء أن يبدأ زحفه طبقاً لإيقاع الطبلة الخاصة به هو فقط .

لكن ليس هناك تعالٍ فيما يتصل بإصرار كينيدى على حتمية أن يتبع كل إنسان معتقداته الخاصة ، ولا تلميح إلى أن أى واحد من أبطاله أو أى رجل يملك طريقاً مؤدياً إلى الحكمة والحقيقة المطلقة لتبرير وجه الحق فى حكمه الشخصى الذى ينفرد به . كان لكينيدى إدراك واضح للتعقيد الغامض المرتبط بالعمل السياسى .

ويعد الفصل الأول «الشجاعة والسياسة» مدخلاً طيباً لكل أنواع الضغوط التى تقع على كاهل النائب البرلمانى ويتحتم عليه تحملها . وعندما دخل كينيدى مجلس النواب يحكى لنا أن أول نصيحة استمع إليها كانت : «إن طريق الاستمرار هو طريق مسايرة التيار ! » كانت هذه النصيحة بالنسبة لكينيدى حكمة حقيقية وليست مجرد انتهازية بمعنى الكلمة . لقد عرف أن النواب بشر وحيوانات اجتماعية ، ولا مفر من أنهم يرغبون فى الحصول على تقدير زملائهم ، إنهم يحبون أن يكونوا محبوبين . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يتحتم عليهم فى بعض القضايا الاستمرار حتى النهاية ، وفى بعض الشئون الأخرى يجب أن يتعلموا الالتقاء فى منتصف الطريق لكى يحققوا أموراً أخرى أكثر أهمية . وكما يقول كينيدى : «إن قدراتهم الفكرية تقول لهم : إن مشروع قانون غير مثالى لكن لا بأس به – خيرٌ من عدم الحصول على أى قانون على الإطلاق ! وإنه فقط من خلال سياسة «هات وخذ» التى تعتمد على الالتقاء فى منتصف الطريق يمكن أى مشروع قانون أن يحصل على الموافقة اللازمة من الكونجرس والبيت الأبيض ورئيس الجمهورية والأمة . » لكنه سرعان ما ذهب إلى القول بأن «القضية

هى : كيف سنلتقى فى منتصف الطريق ؟ ومن نلاقيه ؟»

ومن الطبيعى بما فيه الكفاية أن النواب يرغبون فى إعادة انتخابهم . فالمنصب هو حياتهم ، وهم يرغبون فى الاستمرار ؛ لذلك لن يسلك الكثيرون منهم مثلما فعل أحد أعضاء الكونجرس عن كاليفورنيا عندما قال لناخب ملح فى دائرته : أن «يقفز خطوتين إلى الأمام ثم يذهب إلى الجحيم ! »

إن للنواب دوائرهم الانتخابية ، وهناك نظرية محترمة فى مجال السياسة الديمقراطية تؤكد أنه يتحتم على النائب – كما يوحى لقبه – أن ينوب عن أبناء دائرته وأن يمثل مصالحهم . وربما يكون من الصعب فصل صوت مجموعات الضغط الاقتصادى (الذين – لكى يعقدوا الأمور أكثر – يقومون أيضاً بدور المصدر الرئيس لحملات جمع الأموال) عن صوت الجماهير ؛ لكن تلك الصعوبة لا تنفى حقيقة الضغط الحقيقى والهائل الذى يقع على كاهل هذا الرجل الذى وصل إلى منصبه بإرادة هؤلاء الذين وضعوه فيه . هكذا يقف النائب عند ملتقى عدد ضخم من القوى التى تجذبه إلى هذا الطريق أو ذاك منها : تقدير زملائه ورغبته فى الاستمرار فى منصبه ، والنظام الذى يتبعه حزبه ، واتباع الفضيلة الحقيقية التى تكمن فى الالتقاء فى منتصف الطريق فى بعض القضايا ، والضغط الذى يمارسه عليه أبناء دائرته – كل هذا يمارس نشاطه على فردية السياسى ؛ ويتسبب فى تآكل استقلاله ، سواء من ناحية معناه الحقيقى أو من ناحية إخراجه إلى حيز التنفيذ .

لكن أبطال كينيدى الثمانية – من الرجال الذين **قاوموا بالفعل** مثل هذه الضغوط ، ودافعوا عن استقلالهم ، ووضعوا حكمهم الخاص قبل وفوق كل الاعتبارات . والآن فإن الأسلوب السهل للإعجاب بهؤلاء الرجال الثمانية يمكن أن يتمثل فى الإعجاب بشجاعتهم ؛ لأنهم كانوا على حق ، لكن الملاحظ عن كتاب كينيدى أنه لم يسلك هذا الطريق السهل والمسرف فى العاطفة ؛ فلم يُعجب بهؤلاء الرجال ؛ لأنهم كانوا على حق ، بل على النقيض من ذلك تماماً : فقد كان إعجابه بهم – سواء كانوا على حق أو على غير ذلك – لأنهم امتلكوا الجرأة على الالتزام باستيعابهم الخاص للموقف سواء كان صواباً أو خطأ ! إن الشجاعة هى موضوع كتابه **فالشجاعة – ليست الحكمة** – هى التى يتغنى بها : فى إحدى النقط يصف كينيدى معارضة النائب الليبرالى والانعزالى فى الوقت نفسه جورج و . نوريس عن نبراسكا للاتجاه الدولى لودرو ويلسون فيقول : «ليس من المهم الآن تحديد : هل كان نوريس مصيباً أو

مخطئاً ؛ إنما المهم الآن هو الشجاعة التى تجلت فى الدفاع عن معتقداته . » هذه الملاحظة – من الخصائص المميزة للكتاب ، وتظهر التنويعات عليها بطوله : ما العبرة التى نستطيع استخلاصها من هذا ؟ فإذا ضربنا مثلاً قاسياً عليها – هل علينا أن نعجب بالعمل الوحشى الذى يتمثل فى الاغتيال السياسى ؛ لأن القاتل ببساطة لديه الشجاعة للقيام بمثل هذه الفعلة ؟ فما المعيار الذى يقدمه كينيدى لإعجابه بالشجاعة ؟

بالطبع فإن لأبطاله المختارين معاييرهم الخاصة ، ومعظمها نال التقدير من معظم الناس . . فى أثناء عملية إعادة البناء هجر نائب كانساس إيدموند ج . روس الجناح الراديكالى للحزب الجمهورى فى محاولة للتشكيك فى رئيس الولايات المتحدة أندرو جاكسون . ولم يكن النائب روس صديقاً لأهالى الجنوب ، ولا صديقاً لأندرو جاكسون ، لكنه فى مجلس النواب وفى مواجهة ضغوط لا تصدق من جميع النواحى رفض أن يعطى صوته الذى كان من الممكن أن يكمل ثلثى الأغلبية الضرورية للتصديق على مشروع القانون . لقد وقف بحزم بناء على التزامه بنظرية فصل السلطات فى الدستور الأمريكى ، وطبقاً لاعتقاده أنه – إذا كان من الممكن التخلص من جونسون بناء على مثل هذه التهم الهزيلة – فإن السلطة التنفيذية ستتحول إلى ألعوبة تحت رحمة نزوات الكونجرس ، وسيقضى هذا على توازن النظام الذى نص عليه فى الدستور الذى أرساه الآباء المؤسسون !

أما النائب الجمهورى المحافظ روبرت آلونزو تافت عن ولاية أوهايو فقد خرج عن أسلوبه المعتاد بلا انتظار لأى مقابل ؛ لكى يهاجم شرعية محاكمات نورمبرج التى عقدت لإدانة مرتكبى فظائع النازى . لم تكن ثمة ضرورة أو مناسبة تستدعى من تافت أن ينطلق بهذا الرأى . وعندما فعل هذا أضعف فرصته فى أن يصبح مرشح حزبه لرياسة الولايات المتحدة ، وهو الطموح الأعظم الأوحد لحياته السياسية . لكن طبيعة القوانين التى لا تقبل النقض ولا الإبرام والتى حوكم مجرمو النازى بمقتضاها جرحت التقدير السامى الذى يكنه تافت لقيمة الإجراءات القانونية وذلك بدافع من التزامه الأولى بحكم القانون ، حتى فى الحالات التى يحتقر فيها هؤلاء الذين يحميهم القانون !

أما عضو مجلس النواب عن ماساتشوستس – الشاب جون كوينسى آدامز – فقد أثار سخط نيو إنجلاند ، وتحدى الحزب الفيدرالى الذى أدخله مجلس النواب ، وذلك بالوقوف إلى جانب توماس جيفرسون عدو أبيه جون آدامز على سبيل الدفاع عن اتجاه جيفرسون فى

التوسع القارى ؛ مما أضعف سيطرة نيوانجلاند السياسية على الولايات الأخرى ؛ وعلى سبيل الدفاع عن حظر جيفرسون للاتجار مع إنجلترا ؛ مما قضى على تجارة نيو إنجلاند وازدهارها . لقد فعل آدامز هذا ليس لمجرد أن رؤيته تخطت حدود المصالح الإقليمية لنيوإنجلاند ، بل لأنه تعلم على يدى أبيه النظرية التطهرية (البيوريتانية) القديمة التى تقول : إن « المسئول الحكومى ليس خادماً للناس ، لكنه خادم لله » .وقد تصرف آدامز طبقاً لقانون أعلى ، واثقاً فقط من أنه سيكون ذاته عندما يعرف إرادة الله ، ومحتقراً – كما صرح بذلك عندما أصبح هو نفسه رئيساً للجمهورية – نفسه إذا « ما أصيب بشلل الإرادة فى مواجهة إرادة أبناء دائرته الانتخابية . »

إن تكامل النظام السياسى كما هو متجسد فى الدستور – احترام حكم القانون ، والإيمان بسيادة القانون بوضعها فوق رغبات الأغلبية المتقلبة – كل هذا يمثل الأسس الجديرة بالتقدير والتى عليها يتحتم علينا أن نقوم بأفعالنا ؛ فهى التى يمكن كثيرين من الأمريكيين أن يقفوا عليها بارتياح .

ومن الواضح أن كينيدى يشارك فى هذا الاحترام لكثير من الدوافع التى منحت هؤلاء الأبطال المنعزلين الشجاعة على القيام بهذا ؛ لكنه لم يحترم كل الدوافع ، لقد أدرك أن التزام تافت بالإجراءات القانونية يمكن أن يفسد العدالة بالمفهوم الأسمى لها الذى كان فى ذهن آدامز . فقال عن تافت كما قال عن جورج و . نوريس : « إننا لا نهتم اليوم باحتمال أن كان تافت مصيبا ! . » فقد أصر كينيدى على أن اهتمامنا قد تركز على « شجاعة تافت التى لم تعرف التردد فى وقوفه ضد تيار الرأى العام فى قضية آمن بصحتها . » ونصرّ مرة أخرى على أنها ليس الحكمة أو الصواب فى الفعل – هو موضوع كينيدى ، فهو يدور عن شجاعة الفعل ذاتها .

وربما أدرك المرء الإغراء وراء إصرار كينيدى على أهمية الفعل الفردى ، والشجاعة فى القيام بمثل هذا الفعل ، إذا ما تذكر الوقت الذى كتب فيه هذا . فقد نشر كينيدى « صور من الشجاعة » فى عام ١٩٥٥ . ويبدو الآن أنه مر بالفعل زمن طويل على عقد الخمسينيات . كان هذا هو عقد « الجيل الصامت » ، عقد النجاح العظيم لكتب مثل « الحشد المنعزل فى وحدته » لديفيد رايزمان ، و « رجل التنظيم » لوليم وايت . واليوم بحكم تعود الطلبة على نمط الحياة فى الولايات المتحدة فإنه من الصعب تذكيرهم بأن الخوف الذى سيطر على مراقبى الخلفية الاجتماعية فى أمريكا فى الخمسينيات قد تمثل فى أن الشباب الأمريكيين قد اعتادوا الأمن والدعة ، لذلك ساروا فى ركاب النظام ولم يخرجوا عن إطاره ، وأداروا ظهرهم للتقاليد

القديمة المشبعة بروح الاستقلال والعصيان . وكان مجتمع القطيع والتوافق العام من الخطوط الفكرية الأساس فى الدراسات الجادة والصحفية على حد سواء ، والتى تنظر بعين النقد لخصائص الثقافة الأمريكية . وقد قيل : إن الأمريكى قد تحول من الرجل الذى يتحرك بدافع من ذاته التى تهديه سواء السبيل إلى الرجل الذى يتحرك بدافع من الآخرين وعليه أن يتناغم فى حساسية طبقا لتوقعات الذين حوله . أصبح رجلاً بلا وجه وسط الزحام . كان ذلك هو المناخ النفسى للعصر ، لكن سرعان ما تغير فى سنوات قليلة . كان نداء كينيدى – وهو النداء الذى يشكل مضمون «صور من الشجاعة» – ضد هذا المناخ النفسى المشبع بموافقة الاستسلام والإذعان وبفلسفة التشاؤم . لقد رفع لواء مثل أعلى أقدم من ذلك ، إنه مثل مقاومة المناخ النفسى الذى يعيش فيه إنسان القطيع !

ولعل سياق الكتاب من الأهمية بمكان . فإن اللحظة الفورية التى كتب فيها كينيدى تمتد عبر الزمان ؛ لتشرح كثيرا من ندائه . إنه تكلم من منطلق إيمانه الواثق بأن أى رجل – له قيمته ووزنه ، وأن إنساناً واحداً فى استطاعته أن يغير مجرى الأحداث ، وأن هذا الإنسان الواحد يمكن أن يكون مؤثراً إذا كانت لديه فقط شجاعة الإيمان بمعتقداته . هذه هى رسالة «صور من الشجاعة» ، رسالة جسدها كينيدى دراميًّا من خلال شخصه ، وفى وجوده الزاخر بالرقة والحماسة ، وحديثه السريع المتقطع .إنها رسالة لخصها بعد ذلك فى اصطلاح «الحدود الجديدة» . وكان نداء كينيدى – الذى توجه به بصفة خاصة إلى الشباب – يؤكد أن العالم مازال عالماً مفتوحاً مرناً ؛ فهو مفتوح للتغيير والتجديد إذا امتلك المرء فقط شجاعة مقاومة الضغط الطاغى لروح القطيع التى تفرض التناغم على الجميع .

لكن هناك خاتمة مثيرة بالنسبة للإشادة بروح المقاومة ، الإشادة بشجاعة الصمود– مثلما قال كينيدى عن تافت – ضد طوفان الرأى العام . على الأقل فإنه هناك عندما تصبح الإشادة إشادة بمجرد فعل أراد صاحبه أن يبدو مختلفاً فقط : بمعنى آخر فإن الإنسان الذى ينتهج سبيلاً لمجرد أنه مضاد للمناخ العام – مثله مثل الرجل الذى اختار السير فى طريق القطيع ؛ فكل منهما يتصرف طبقاً لحركة القطيع . إنه يسير فقط فى اتجاه مختلف ، لكن الطريق الذى يسلكه القطيع مازال يحدد اتجاهه ! وإذا أردنا تحديد هذا المفهوم بدقة أكثر – وإن كان هذا التحديد أكثر ثقلاً على النفس – فإن هذا الإنسان يصبح بمثابة الجانب السلبى للقطيع : فإذا قاوم إنسان الحالة السائدة لمجرد أنها كذلك – فهو شخص غير متميز عن ذلك الذى يواكب التيار

لضمان الاستمرار. إنه يخالفه فقط فى الاستراتيجية ، ولم نعد بعد قادرين على الإعجاب بأيهما ؟ وهذا يعيدنا مرة أخرى إلى السؤال الحرج ، السؤال الذى وصل إليه كينيدى نفسه فى نهاية كتابه : ما المعيار الذى لدينا لكى نقيس به معنى الشجاعة ؟ ولماذا الشجاعة فى ذاتها ومن تلقاء نفسها خاصية مثيرة للإعجاب ؟

وإذا كان كينيدى قد نادى بتقاليد قديمة تنهض على روح الاستقلال والاعتماد على الذات – فإنه على أية حال لم يشارك فى المفاهيم التى قدمت الدعم قبل ذلك لمثل هذا الموقف : فعلى سبيل المثال عندما دافع توماس جيفرسون عن حقوق الأقلية فإنه فعل ذلك ثقة منه فى أن الحقيقة شىء عظيم وسوف يسود ، واعتقادا منه بأن المنطق سيتجلى للجميع وسط صراعات البشر ! أو إذا أخذنا مثالاً آخر – عندما كتب رالف والدو إيمرسون الجملة التى يعرفها كل تلميذ فى المدرسة : «ثق فى نفسك : فكل قلب يردد صدى هذا الوتر الحديدى» – فإنه كتب أيضاً على سبيل التأكيد أن «الإيمان بفكرك الخاص – أى الإيمان بما هو حق وحقيق بالنسبة لك ولقلبك الخاص بك – هو الإيمان بما هو حقيق بالنسبة لكل البشر.» فقد اعتمد تأكيد إيمرسون على الثقة بأن كل البشر يشتركون فى الطبيعة نفسها ، وأنه تحت السطح الخارجى للتقاليد والظروف فإن كل البشر فى قدرتهم اكتشاف الحقائق نفسها إذا كانت لديهم الشجاعة لاختراق هذا السطح.

ليس هناك شىء من هذا القبيل عند كينيدى ؛ فإننا لا نجد هذا التأكيد الواثق من عقلانية الإنسان ومن النظام الأخلاقى للكون ، لكن مع تخلص كينيدى من الدعامات القديمة التى نهضت عليها شجاعة الإنسان فى أن يكون نفسه – فإنه مازال يؤكد تلك الشجاعة. وبالنسبة لنوابه الثمانية فقد اعتقد أن الموقف الذى تطلب الشجاعة من كل منهم على حدة كان الرغبة فى خدمة المصلحة القومية ، لكنه حتى فى هذا الشأن كان الشك ينتابه فيما يتصل بهذا المفهوم العام المجرد. إنه يردد قول جون آدامز الذى يؤكد أنه ليس حقيقيًّا «وجود هؤلاء الناس الذين يحبون الجمهور أكثر من حبهم لأنفسهم». إذن إلى أى اتجاه يستطيع المرء أن يلجأ لإبراز إعجابه الخاص بهؤلاء الذين لديهم شجاعة الالتزام بمعتقداتهم الخاصة ؟

كانت إجابة كينيدى بسيطة : إنها لم تأت على أساس أن نوابه «أحبوا الجمهور أكثر من حبهم لأنفسهم ! على النقيض من ذلك تماماً فقد أتت الإجابة اعتمادا على أنهم أحبوا أنفسهم بالفعل ؛ ولأن حاجة كل منهم للاحتفاظ باحترامه الذاتى لنفسه كانت أكثر أهمية له من شعبيته

عند الآخرين ، ولأن رغبته فى اكتساب أو الاحتفاظ بصفة الأمانة أو الشجاعة كانت أقوى من رغبته فى البقاء فى المنصب ؛ ولأن ضميره ، ومعياره الشخصى للأخلاقيات ، وأمانته وخلقه – أطلق على كل هذا ما تشاء من الأسماء – كان أقوى من الضغوط الرافضة التى يمارسها الجمهور ؛ ولأن إيمانه بأن سبيله هو الأفضل . . . فقد رجحت كفته على خوفه من رد الجمهور السن بالسن . »

« جاءت الإجابة على أساس أنهم أحبوا أنفسهم بالفعل . » وكما قال كتاب آخر أكثر قدما : « حب قريبك كنفسك ! » . لكن تلك النصيحة الحكيمة تعنى أنه يتحتم على المرء أن يحب نفسه قبل أن يستطيع البدء فى معرفة كيف يحب قريبه أو جاره ؟ إن الإحسان يبدأ فى البيت ، والصخرة التى أقام عليها كينيدى إعجابه بالشجاعة هى الحقيقة البسيطة التى تلمح بأنه إذا لم يتصرف الإنسان بوحى من حبه لنفسه ، ومن حتمية إرضائه لنفسه – فإن كل ما يتبع لن يكون سوى الكراهية والعقم والاشمئزاز ! إن ضرورة تحقيق الذات من الأولويات التى لا مناص منها ، فلابد من الابتهاج بالكيان الذاتى نفسه . وسواء كان المرء مصيباً أو مخطئاً ، وسواء أدت أفعاله إلى النجاح أو الفشل – فهذه كلها اعتبارات ثانوية ، فهى ليست ملحة ، وإنما الملح هو أولوية الذات وشجاعة تحقيق تلك الذات .

وفى مقالة شهيرة لنورمان ميلر أشاد بكينيدى بصفته « الوجودى » فى مجال السياسة ، وذلك على الرغم من اعتقاد ميلر بعد ذلك أن كينيدى خيب ظنه ! هذا التعبير كان مسايراً لروح العصر فى وقته ، لكنه مازال مفيداً . لقد أصر كينيدى – حتى النهاية – على أن بداية أى شىء آخر هى شجاعة قبول ما كان عليه الإنسان ، ثم التصرف بناء على قبول الذات كما هى : ذلك أن حب الذات هو الذى يجعل الإنسان قادراً فى النهاية على حب الآخرين .

والمرء لن يقوم بأى عمل من أعمال العنف تجاه الآخرين طالما أن ذلك سيشوه ذاته هو ، هذه هى صورة كينيدى التى وصلت بطريقة ما إلى الجيل الناشئ ، وهى التى مازالت تعيش فى صورة ما يسمى بروح كينيدى . وكما يقول الشباب اليوم : « اعمل أى شىء بنفسك » . لا تترك دعة العيش تخدعك أو القوة تسلبك إرادتك ! حِبَّ نفسك بما فيه الكفاية حتى تستطيع أن تحقق ذاتك مهما كان الوضع أو النتيجة . إذا لم تفعل أشياءك بنفسك ، وإذا بدأت بعمل أشياء شخص آخر – فعندئذ ستصبح مغترباً مع ذاتك ، ولن يتبقى سوى الرماد !

ويستطيع المرء أن يحدد الموقف بلغة أكثر لياقة من هذا ، لكن هذا الإدراك لشجاعة

الإنسان بمفرده أن يكون نفسه هو الذى يكمن فى قلب كتاب جون ف . كينيدى « صور من الشجاعة » . وربما كما قلت فى بداية هذه المقالة – كان سواد الموت ، أو الإنكار المطلق للذات – هو الذى جعل هذه الخاصية فى كينيدى تبدو لنا اليوم قوية بهذه الدرجة . ربما لم نرها فى عام ١٩٥٥ ، لكن على الرغم من إغراءات البريق ، وعلى الرغم من الثروة ، وتربية جامعة هارفارد ، والزوجة الوسيمة ، وعلى الرغم من رياسة الجمهورية ، والرائحة الجميلة للنجاح – فإن الخاصية التى تسيطر على ما عداها إنما هى روح إنسان وحيد ، لكنه وجد الشجاعة فى أن يكون الإنسان الذى عرفه فى وحدته . وفى جملة أعجب بها كثيراً للمرحوم جوزيف شومبيتر الذى كتب ذات مرة يقول : إن علامة الإنسان المتحضر تكمن فى قدرته على الوقوف بصلابة وإصرار وراء الصحة النسبية لمعتقداته . وكان الإنسان الذى كتب « صور من الشجاعة » – إنساناً متحضراً .